بدايتها ، كان وعيه للقضية الفلسطينية مطبوعا ، الى حد ما ، بالرؤية المصرية السائدة. قلت « الى حد ما » وذلك لان اصول عبدالناصر الشعبية ونشأته النضالية في حداثته ووطنيته الراديكالية جعلته يولي اهتماما اكبر بكثير لقضية فلسطين(٣). اما بعد انتسابه للجيش فمن المحتمل ، ان لم اقل من المرجح ، ان تكون تأثيرات الاخوان المسلمين على بعض رفاقه في التنظيم من جهة ، وتأثيرات عزيز المصري ، الـذي عاش وناضل فترة طويلة في بيئة سياسية قومية عربية ، من جهة اخرى قد أسهمت في تعميق ذلك الاهتمام. فكان عبد الناصر من اوائل الضباط المصريين الذين حاولوا الالتحـاق بجيش الانقاذ ، الذي كان يحارب في فلسطين قبل أيار ١٩٤٨(٤).

ان اشتراك عبد الناصر في حرب فلسطين ، الذي أتاح له ان يلتقط عيانا ، ومن خـلال تجربته المباشرة الذاتية ، فساد النظام ، كان أحد العوامل الرئيسية التي فجرت ثورة ٢٣ يوليو ، كما كان عاملا حاسما في تقدم وعي عبد الناصر للمسألة الفلسطينية ، الا ان هذا الوعي بقي آنذاك غائما الى حد ما . غير ان اشتراكه هـذا في الحرب لعب دورا كبيرا في اعطاء نزعته القومية طابعا اكثر راديكالية . في الفالوجة ، حيث كان عبد الناصر محاصرا مع جنوده من قبل الهاغاناه ، اكتشف ان مصر «فالوجة اخرى على نطاق كبير»، وانه لا يحارب في أرض غريبة بل دفاعا عن النفس(٥).

هل كان عبد الناصر يسقط وعيه لقضيـة فلسطين في العام ١٩٥٤ (أي عنـدما كتب « فلسفة الثورة ») على وعيه لها في العام ١٩٤٨ ؟ هذا هو المرجح ، لان نزعته القومية العربية لم تتوضح الا في العام ١٩٥١(٦). والحال ان مثل هذا الوضوح هو الذي يعطي العربي غير الفلسطيني مزيدا من الوعي بجوهر المسألة الفلسطينية من جهة ويجعـل التزامه بها مصيريا من جهة اخرى .

ولكن اذا كان وعي عبد الناصر القومي العربي قد توضح في العام ١٩٥١ ، الا اننا نعتقد ان هذا الوضوح لم يصل الى حد التبلور في العام ١٩٥١ ، كما ذكر عبد الناصر ، بل في العام ١٩٥٣ ، عندما بدأت المناوشات الاولى بينه وبين القوى الامبريالية ، وامريكـا بالتحديد ، التي رفض منذ العام ١٩٥٢ توقيع اتفاقية الامن المتبـادل معها مقابل صفقة اسلحة عرضتها امريكا . ولقد كان تدشين محطة اذاعة « صوت العرب » ، في ايـار ١٩٥٣ ، أول أمارة قاطعة على ذلك .

ما العناصر التي ساهمت في بلورة وانضاج هذا الوعي القومي العربي لدى عبدالناصر ؟ تجدر الاشارة اولا الى أن انشغال مصر بالتجديد والتحديث ، فضلا عن التحـرر من الاستعمار ، يشكل المحتوى الرئيسي لنزعتها القومية ، بما في ذلـك النزعة القومية المصرية . فبالرغم من حضور ما للماضي في الواقع المصري ، هذا الحضور الذي يزن على محاولات النهضة ، الا ان هذه النهضة في الرؤية المصرية ليست احياء ماض سلف، فالالتفات الى الماضي في مصر أضعف مما هو في البلدان العربيـة الاسيوية ، رغم أن السلفية وبصمات المجتمع القديم قد تبدو ، ظاهريا ، أقوى في مصر . ومن هنا لم يكن النزوع الوحدوي الناصري بعثا للماضي العربي ، كما في المشرق العربي الاسيوي ، بل بالاحرى احياء لحاضر ليس مشلولا وهزيلا وخانعـا لا لانه مشرذم بفعل الامبرياليـة ومضطهد من قبلها . ولهـذا فان النزعة القومية العـربية أصبحت أكثر عصرية وأكثر راديكالية عندما صبت من جديد في القالب المصري بل القالب الناصري . وهذا يفسر لماذا نمت النزعـة القومية العربية في مصر وقويت في الصراع ضد الامبريالية ، في حين ان النزعة القومية العربية في بلدان المشرق العربي ، وبسبب من بروز العنصر السلفي ، فجرت ثورتها الاولى بقيادة لورنس الفعلية وعايشت الامبريالية ، رغم تناقضات معها خفيفة او شديدة الى هذا الحـد او ذاك ، وفي هذه الفترة او تلـك . ألم يتوهم حزب البعث ، مثـلا ، في اوائل الخمسينات (وكـان آنـذاك اكثر الاحزاب القومية تقدمـا